الْعَلَّامَةُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ زَيْنُ الدِّينِ بْنِ عَلِى حَسَنٍ الْأُودَكَّلِيُّ الْمَلَيْبَارِيُّ،

«بَحْرُ الْعُلُومِ»، «أُسْتَاذُ الْأَسَاتِيذِ»

(1916-2002م)



د. عَبْدُ النَّصِيرِ أَحْمَدَ الشَّافِعِيُّ الْمَلَيْبارِي

عفى عنه مولاه الباري

(أستاذ بجامعة الإمام الشافعي، شي آنجور- إندونيسيا)

فَقِيهاً وَصوفِياً فَكُن لَيسَ واحِداً

وَإِنّي وَحَقُّ اللهِ إِيَّاكَ أَنْصَحُ

فَذَلِكَ قَاسٍ لَمْ يَذُقْ قَلْبُهُ تُقًى

وَهَذَا جَهُولٌ كَيْفَ ذُو الْجَهْلِ يَصْلُحُ

بسم الله الرحمن الرحيم

أُسْتَاذُ الْأَسَاتِيذِ

إننا اليومَ مع عَلَم فذٍّ من الأعلام، في رأسه نار، ودُرة يتيمة من درر تاريخ الإسلام، ذاتِ هيبةٍ ووقار، وعظيمٍ صار في ذيوع الصيت بحيث يُعَدُّ التعريف به ضربا من العبثْ، وأصبح حدَثًا يُشير إلى شموخ دين الإسلام، أعْظِمْ به من حدَثْ ! وحديثا لا حاجة لذكر سنده؛ لأنه من المرسلات عرفا عند عارفي قدره. علَمٌ له من العلَامة والشهرة نصيبٌ أوفرُ، فصار أعرفَ المعارف، مع أنه لم يكن ضميرا أصابه الضُّمورُ والخُمولُ، وتلك من النِّعم الإلهية والْمِنَن اللطائف[1] !!

([1]) أشرت في ضمن هذا الكلام إلى لطيفة لغوية ممزوجة بنفحة صوفية، وهي: أن علماء العربية لم يجعلوا (الْعَلَمَ) أعرف المعارف، مع كونه مأخوذا من

وكم تكون الرحلة سعيدةً – أيها المحبُّ - حين تكون في صحبةِ عالمٍ مجاهدٍ أنفق في إحياء العلم بياض أيامه وسواد لياليه، وأفنى في درسه شبابه، واستمر في تدريسه والعمل به في كهولته وشيخوخته، بل أحيى سنةَ رسولِ **الله** بـ«إحياء سننٍ»ه، وها نحن نُقبل على هذه السيرة العطرة ونُحَلِّق في سماءها الفسيحة !

المبحث الأول: اسمه ونسبه وشهرته:

هو: الشيخ زين الدين بن الشيخ على حسن (ت: 1351هـ) بن الشيخ عبد الرحمن الصغير (ت: 1341هـ)

«الْعِلْمِ» و«العَلَامَةِ» الدالة على الشهرة والظهور، وإنما الذي جعلوه أعرفَ المعارف هو (الضمير)، مع كونه مأخوذا من الخفاء والخمول والضمور. وكم أبدع حكيم الصوفية الكرام مولانا الشيخ الإمام تاج الدين ابن عطاء **الله** السكندري في حِكَمِه الباهرة؛ إذ قال: «ادفنْ نفسَك في أرض الخمول، فما نَبَتَ مما لم يُدْفَنْ فلا يتِمُّ نِتَاجُه». وهناك قصة تروى عن الإمام سيبويه أنه رئي في المنام فقيل له ما فعل **الله** بك، فقال: أدخلني الجنة لقولي إن «**الله**» هو أعرف المعارف، أو ما معناه، وقيل: إن «هو» خاصة أعرف المعارف لكونه راجعا إلى «**الله**» بطريق الإشارة لا بطريق العبارة، و**الله** أعلم وعلمُه أتم.

بن القاضي الشيخ كنج أحمد (ت: 1288هـ) بن القاضي الشيخ عبد الرحمن (ت: 1269هـ) بن القاضي الشيخ أحمد (1078- 1178هـ) بن القاضي الشيخ على حسن (1050- 1132هـ) بن الشيخ عبد الرحمن العدني، الأُودَكَّلِي نسبا، المليباري إقليما، الباقوي تخرجا، الشافعي مذهبا، الأشعري معتقدا، الباعلوي طريقة. وكانت أمه عائشة بنت الشيخ زين الدين، قاضي «مَتَّتُّور»[1].

فهو إمام خرج من أصلاب الأئمة، هُمام لم يقاربه أحد في علو الهمة، شمس سماء العلم التي أنارت بها الأكوان، وحامي بيضة الإسلام من الجهل والعبث والعدوان، ومَعْلَمٌ من معالم الهدى والاستقامة في ديار «مليبار»، منهل عذب سائغ ارتوى به جم غفير من سادات الأمة الأبرار. لُقِّب بـ«بحر العلوم» و«أستاذ الأساتيذ»،

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 23، 308.

واشتهر بين أهل «مليبار» بـ«أُو. كي. أستاذ»، وناداه المحبون والأصحاب بـ«شيخنا» مع إجلال وإكبار يُنبئان عن عظيم منزلته في قلوبهم، وسيطرته على مشاعرهم.

والشيخ عبد الرحمن العدني ممن وفد على «مليبار» من اليمن، وقد زوَّجه الشيخ الإمام زين الدين الصغير (ت: 1028هـ) ابنتَه فاطمة، وهذا يدل على أنه شخص ذو منزلة في العلم والشرف. وهو بعد فترة غادر «فنان»، ربما إلى اليمن، والله أعلم، ثم لم يرجع إلى «فنان»، وكانت زوجته فاطمة حاملا عند مغادرته البلدَ، فأوصاها بأن تسمي ولدَه «على حسن»، إن كان ذكرا، أو «فاطمة» إن كان أنثى. فولدتْ مولودا ذكرا، فسماه «على حسن»، وكان ذلك في عام 1050هـ بـ«فنان»[1].

وجده على حسن المذكور هذا عاش كاليتيم، في غيبة والده الذي تركه مع أمه، فتلقى العلوم في «فنان» على

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 301، 302.

أيدي أخواله، حتى صار من العلماء الكبار، فانتقل إلى «ترورنغادي»، وتولى منصب قضائها، وقد توفي عام 1132هـ، وقبره في المدفن العام الملحق بجامع «ترورنغادي» الكبير، في جهة شرق الجامع، معروف يزار، وكان الشيخ قطب الزمان السيد علوي مولى الدويلة المنفرمي – رحمه الله – يقوم بعمارة هذا القبر بالزيارة وإقامة العرس والمولد[1].

وكان للشيخ على حسن أبناء أربعة: أحمد، عبد الرحمن، عبد العزيز، زين الدين. وأما أحمد (1095[2]-1178هـ) فقد درس على يدي والده، ثم في «فنان» على الشيخ عبد العزيز المخدوم الثالث الفناني، المتوفى عام 1130هـ، والشيخ نور الدين المخدوم، المتوفى عام

([1]) انظر قدوة حسنة: ص/ 302، 303.

([2]) كذا في «تحفة الأخيار» (ص/ 15) للشيخ محمد على النلكتي أن مولده عام 1095هـ، والذي في «قدوة حسنة» (ص: 303) أنه ولد عام 1078هـ.

1153هـ، وصار من أعيان الوقت، حتى تولى منصب القضاء والتدريس في «تانور»، وقد توفي هو أيضا في «ترورنغادي»، ودفن بها، كما ورد في «قدوة حسنة: تذكارية الشيخ زين الدين»، بينما الذي قاله المؤرخ المحقق الشيخ محمد على مسليار النَّلِّكُّتي أنه دفن في جوار المسجد الجامع التانوري. وكان له ابنان: على حسن، وعبد الرحمن[1]، وصاحب ترجمتنا من نسل الابن الثاني: عبدِ الرحمن، كما سيأتي بيانه.

وابنه الأكبر على حسن كان قاضيا في «مَتَّتُّورْ»، واستمر في هذا المنصب طوال خمسين عاما من الزمن. وقد أنجب ثلاثة أبناء: الأكبر هو كنج أحمد خلف أباه في قضاء «مَتَّتُّورْ» بعد وفاته، والأوسط هو أحمد انتقل إلى

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 303، تحفة الأخيار في تاريخ علماء مليبار لمحمد على مسليار: ص/ 15، 16، وهو ممن ترجمنا له في كتابنا تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية؛ الإصدار الثاني: ص/ 168، 169.

بلدة «كُنْدُوتِّي» حيث صار قاضيا هناك، وقبره في مقبرة جامع «كُنْدُوتِّي» القديم التي بها قبور شهداء معركة «أُومَانُورْ» رضوان الله عليهم، والثالث الأصغر عبد الرحمن كان قاضيَ «تانور»، وقضاة «تانور» منذ ذلك الوقت إلى الآن من نسله المبارك[1].

وقد توفي الشيخ على حسن عام 1240هـ، وقبره بالقرب من منزل «مُسْلِيَارَكَمْ» في قرية «مَتَّتُّورْ». وأما عبد الرحمن شقيق على حسن فقد خلف أباه في قضاء «تانور»، وتولى أيضا منصب القضاء في بلدة «كُيِفُّرَمْ»، توفي الشيخ عبد الرحمن عام 1269هـ، ودفن في مقبرة جامع «تانور»[2].

وابنه الوحيد كنج أحمد خلف أباه الشيخَ عبد الرحمن في قضاء «كيفرم»، واستمر في هذا المنصب طيلة

([1]) انظر قدوة حسنة: ص/ 303، 304.

([2]) انظر قدوة حسنة: ص/ 305.

سبع وثلاثين عاما، وكان عالما كبيرا، وهو ممن تتلمذ للعلامة الشيخ القاضي عمر بن على البلنكوتي، المتوفى عام 1273هـ. وهو الذي بنى المنزل المعروف بمنزل «مُسْلِيَارَكَمْ» الذي في غرب جامع «كيفرم»، والذي ولد فيه صاحب ترجمتنا[1].

وقد تزوج الشيخ كنج أحمد بامرأتين، له في أولاهما ابنُه عبد الرحمن الكبير وأربعُ بناتٍ، تزوج بثانيتهِنَّ الشيخُ عبد الرحمن التانوري النقشبندي المشهور، وفي الثانية – وهي فاطمة بنت على حسن المخدوم – عبد الرحمن الصغير، واشتهر بـ«باوا كتي مسليار»، وهو جد صاحب ترجمتنا. توفي الشيخ كنج أحمد في رمضان عام 1288هـ، وقبره في الجهة الغربية لمسجد «كُيِفُّرَمْ» الغربي.

وقد عُيِّن الشيخ عبد الرحمن الكبير، المتوفى في شعبان عام 1330هـ قاضيا في «إِرِنْغَّلُّورْ»، وله ابن اسمه

---

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 305.

كنج أحمد الثاني، المتوفى عام 1389هـ، تولى منصب قضاء «إرنغلور» بعد وفاة أبيه، وكان قاضيا في أربعين بلدة أخرى تقريبا، وكان بينه وبين صاحب الترجمة صلة ودية وعلاقة روحية[1].

وأما الشيخ عبد الرحمن الصغير بن الشيخ كنج أحمد فكان قاضيَ «كيفرم» بعد وفاة الوالد الماجد، أنجب في أولى زوجتَيْهِ ولدين ذكرين: كنج أحمد الشهير بـ«كُتِّي مسليار»، وعلى حسن الشهير بـ«كويا كتي مسليار»: والد صاحب الترجمة. توفي الشيخ عبد الرحمن الصغير في الرابع عشر من شهر ربيع الآخر، عام 1341هـ[2].

وللشيخ على حسن خمسة أولاد: ثلاثة أبناء وبنتان، الابن الأكبر توفي أثناء دراسته في «الباقيات الصالحات» بـ«ويلور»، والابن الثاني هو شيخنا العلامة الشيخ زين

---

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 305، 306.

(2) انظر قدوة حسنة: ص/ 307.

الدين صاحب الترجمة، والثالث محمد كتي توفي صغيرا، هؤلاء الثلاثة كلهم أشقاء، مع أخت اسمها آمنة، تزوجها السيد آتَّ كويا المتَّتُّوري، والخامسة ليست شقيقة لهم، بل هي أخت لأبيهم في زوجته الثانية التي تزوجها بعد وفاة أمهم، وكانت وفاة الوالد الماجد على حسن في عام 1351هـ[1].

المبحث الثاني:

مولده ونشأته ورحلاته العلمية، وأهم شيوخه:

ولد في قرية «كُيِفُّرَمْ» Kuzhippuram، في عائلة «أُودَكَّلْ» عام 1916م. تلقى مبادئ العلوم في بيته ومسقط رأسه، على يد والده، ثم على يد الشيخ كنج محيي الدين مسليار الكَيْفَتَّوي، الذي كان يدرس في جامع «كيفرم»، وكان متمكنا من اللغة العربية نحوا وصرفا.

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 307، 308.

(1) ثم انتقل إلى بلدة أمه «مَتَّتُّورْ» في النصف الثاني من عشرينات القرن العشرين؛ ليلتحق بحلقة درس العلامة الشيخ محمد كتي الْكَيْفَّتَّوِي الْكَرِمْبَنَكَّلِي، المتوفى عام 1369هـ[1]، وكان ذلك بعد وفاة أمه[2]. وقد درس عنده كتب النحو مثل «تقويم اللسان» و«ألفية ابن مالك». واستمر عنده إلى حوالي عام 1932م؛ حيث انتقل – أي الشيخ محمد كتي رحمه الله – من «متتور» إلى «وَنْدُورْ»، ولم يرافقه الشيخ زين الدين إلى «وندور» الواقعة في مسافة بعيدة عن بلدته حوالي أربعين كيلومترا؛ لضيق مالي واجتماعي أصابه

---

(1) انظر لترجمته وشيوخه وتلاميذه ومصنفاته كتابنا تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية؛ الإصدار الثاني: ص/ 256، 257، وأسماء المؤلفين في ديار مليبار للعلامة الشالياتي: 52 (مطبوع في عمان/ الأردن، بتحقيق الفقير).

(2) انظر قدوة حسنة: ص/ 23.

بعد وفاة والده، ولم يكن عمه الشيخ موسان كتي الذي تكفله بعد موت أخيه على حالة ميسورة ليساعد ابنَ أخيه في هذه المسيرة العلمية[1].

(2) ومنذ عام 1932م واصل دراسته في جامع «تْشَمَّنْكَدَوْ»، على يد العلامة الفقيه الشيخ تاج العلماء محمد عبد الرحمن، المشهور بـ«صدقة **الله** الوندوري»، المتوفى عام 1406هـ/1985م. ثم لما انتقل الشيخ صدقة **الله** إلى «وندور» صحبه إلى هناك، وكذا رافقه إلى جامع «تَلَكَّدَتُّورْ» حين انتدب الشيخ صدقة **الله** مدرسا فيه، ففي هذه الحلقات المتعددة قرأ الشيخ زين الدين على تاج العلماء أهم الكتب العلمية في شتى الفروع

([1]) انظر قدوة حسنة: ص/ 25.

والفنون، مثل «ألفية ابن مالك»، و«شرح المحلي على المنهاج»، و«شرح المحلي على جمع الجوامع»، و«شرح العقائد النسفية»، و«شرح الملا حسن على سلم العلوم» في المنطق، و«تشريح الأفلاك»، و«الأقليدس» في الهندسة، و«خلاصة الحساب» وغيرها[1]. وفي أيام العطلة في جامع «تلكدتور» حينما يريد الرجوع إلى بلده «كيفرم» كان يذهب مشيا على القدم، ويبدأ في المشي منذ منتصف الليل، ويصل إلى بيته قبل طلوع الشمس، متجاوزا السهول والحقول، والطرقات الخالية عن الناس، ولم يكن عنده ما يمْكِنه به ركوبُ الحافلة من الأجرة البسيطة[2]. ولم يكن يعرف

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 47، 51، 52.

(2) انظر قدوة حسنة: ص/ 52، 53.

حيلة التغلب على مشكلة الفقر بقبول تبرعات المحسنين، وإنما الذي يوليه الأهمية والأولوية هو شرف النفس وكرامة العلم، ذلك المعنى الرفيع الذي ضيعه أبناء الزمان.

ويحضرنا هنا ما ذكره الشيخ رحمه الله من قصة تعلم الطب والطلسم، وقد درسهما على شيخه العلامة صدقة الله في جامع «تلكدتور»، وكان الشيخ من أمهر الأطباء والطلسمانيين في ذلك الزمان، أخذ عنه الشيخ زين الدين هذين العلمين؛ نظرا – كما ذكر هو نفسه فيما بعد – إلى ضيق حاله المادي؛ فإن العلوم الشرعية ليست وسيلة لكسب المعيشة، على خلاف الطب والطلسم، وهكذا كان إقباله على دراستهما، حتى صار من المهرة المتخصصين فيه، إلا أن الله لم يشغله بهما في

بقية حياته؛ حيث شغَلَه بخدمة العلم وتربية المتعلمين، مقتنعا بما يأتيه من الرواتب البسيطة[1].

(3) ثم في عام 1941م وصل إلى حلقة درس الشيخ كنج أحمد مسليار الفَلُّوري، ثم الكافَّادي، المتوفى عام 1378هـ، من مشاهير تلاميذ الإمام الشيخ أحمد بن نور الدين الفانغلي، وكان وراء ذهابه إليه قصة قصيرة: أن الشيخ حسن بن محيي الدين الفافنشيري – الشهير فيما بعد بالشيخ حسن حضرت، وصديق صاحب ترجمتنا المحبَّب إليه، المتوفى عام 1402هـ/1982م[2] – جاء إلى

([1]) انظر قدوة حسنة: ص/ 53، 54.

([2]) انظر ترجمته في كتابنا تراجم علماء الشافعية؛ الإصدار الثاني: ص/ 339-352.

جامع «تلكدتور» رغبةً في قراءة «شرح جمع الجوامع» على مدرسه الشيخ صدقة الله، وكان صاحب ترجمتنا طالبا عنده إذذاك، ولكن الشيخ صدقة الله لعدم الوقت الكافي له لم يقبل طلبه، بل صرفه إلى شيخ آخر.

وعلى أي حال، لما زار الشيخ حسن هذا الجامع سنحتْ للشيخ زين الدين فرصةُ اللقاء بهذا الطالب الكبير، فجرى بينهما من الأحاديث ما يجري بين طالب ذكي وآخر مثله، ففي أثناء هذا الحوار ذكر الشيخ حسن شخصا يُتْقِن تدريس «الرسالة الماردينية» في فن الميقات والقبلة إتقانا كاملا، وهو الشيخ كنج أحمد مسليار المذكور، فلما سمع الشيخ زين الدين هذا الخبر اشتاق للذهاب إليه والجلوس بين يديه طالبا مستفيدا، حتى صلى

صلاة الاستخارة وجَدَّ في الدعاء والتضرع، ثم لما نام بعده رآه – أي الشيخَ كنج أحمد – في المنام، ولم يكن قد رآه من قبل[1].

أقام عنده في جامع «كافاد» ثلاث سنين، درس خلالها «الرسالة الماردينية»، كما أعاد قراءة كثير من الكتب التي قرأها قبلا على مشايخ آخرين، أعاد قراءتها عليه[2]، وهذا يدل على منزلة الشيخ كنج أحمد في قلب الشيخ زين الدين، وكان يذكره دائما بمنتهى الإجلال والإكبار.

وفي جامع «كافاد» تمت له قراءة أمهات التراث الفقهي والكلامي واللغوي والعقلي الموجود في السلسلة النظامية قبل مرحلة

---

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 55، 56.

(2) انظر قدوة حسنة: ص/ 68، 69.

التخرج، وصار في ذلك الوقت بحيث يستطيع تدريس العلوم الشرعية والفنون العربية جيدا، وأما الذهاب إلى إحدى الكليات المعروفة ليتخرج فيها فلم يكن في استطاعته؛ لضيق حالته المادية، إلا أن شيخه الشيخ تاج العلماء صدقة الله الوندوري هو الذي أقنعه بأهمية التخرج، وأن يكون لديه عنوان ليُمَكِّن من نشر العلم، فمن هنا صرف الشيخ زين الدين بعض الوقت لجمع المال المحتاج إليه في ركوب القطار وسائر المصروفات أيام دراسته في كلية الباقيات الصالحات بـ«ويلور»، فجلس يعالج المرضى والمصابين بأنواع المصائب حتى حصل له القدر الكافي من المال.

وهكذا يركب الشيخ القطار – وبرفقته صديقه وشيخه الشيخ حسن حضرت[1] – متوجها إلى تربة «ويلور» دار السرور، ويصل هناك في عام 1944م، يلتحق بـ«الباقيات الصالحات» ذات السابقات الدائمات.

(4) وأما بالنسبة لسلوك طريق التصوف فإنه قد أخذ الطريقة الباعلوية عن الشيخ المربي والعارف المزَكِّي الإمام الشيخ كنجي فوكر التْشَّرِيَمُنْدَمِي المليباري، رحمه الله.

وكان الشيخ زين الدين رحمه الله يحب هذه الطريقة جدا، ويذكر بعض فضائلها أحيانا، منها: أن الملتزم بها لا بد أن يُختَم له بخاتمة الحسنى عند الموت. وخير شاهد له هو شيخه

---

(1) وهو لم يلتحق بالباقيات طالبا، وإنما سافر إلى دار العلوم بـ«ديوبند»، ثم رجع إلى «الباقيات» مدرسا، كما بينا ذلك في ترجمته.

الشيخ كنجي فوكر نفسه؛ وقد حصلت له كرامة: أنه – أي الشيخ كنجي فوكر – قد أرسل بعض خدامه إلى بعض مريديه، منهم صاحب الترجمة ينعى نفسَه، فجاء خادم له إلى منزل الشيخ كنجي محمد مسليار في «إرنغلور» وكان الشيخ زين الدين صاحب الترجمة موجودا عنده إذ ذاك، وكان ذلك في صباح يوم الجمعة، فأخبرهما الخادم بأني أتيتُكما من قبل الشيخ كنجي فوكر يخبركما بأنه قد مات !

وما أن سمعا هذا الخبر من فيه خرجا إلى «تشَرِيَمُنْدَمْ» بلد الشيخ كنجي فوكر، ولما وصلا قرب منزله سمعا شيخَهما من داخله

ينطق بـ«لا إله إلا **الله**»، ففاضت روح الشيخ الطاهرة[1].

وكان له أيضا علاقات روحية مع شخصيات صوفية ومشايخ ربانيين في زمانه، مثل العلامة الشيخ كنجي ملكان الأَرَكَّلِي (الشهير بـ«أَرَكَّلْ مُوفَّرْ»)، والشيخ عبد الرحمن العروس الفانايكلمي، والشيخ محمد كتي الكيفتوي، والشيخ أبي بكر الكَكّدِفُّرَمِي، والشيخ محمد حاجي الوَدَكَرَوي والشيخ كنجي صوفي وغيرهم رضي **الله** عنهم ونفعنا بهم. وقد أخذ إجازة «**دلائل الخيرات**» من الشيخ أَرَكَّلْ مُوفَّرْ، وإجازة التدريس والمطالعة أخذها من الشيخ عبد الرحمن العروس الفانايكُّلَمي[2].

([1]) قدوة حسنة: ص/ 164، 165.

([2]) انظر قدوة حسنة: ص/ 161، 168، 169.

المبحث الثالث: مفتاح شخصيته:

كان رحمه الله عالما ربانيا، صوفيا حقانيا، تحققت في شخصيته سمات العلماء العاملين، وأخلاق الفضلاء الخاملين، وشِيَم ورثة النبيين والصالحين، كان له من الزهد والقناعة النصيب الأوفر، والنسك والعبادة القسط الأكبر، وكان يبدأ يومه منذ الساعة الثالثة قبل الفجر، يستيقظ ويتوضأ ويتعطر، ثم يصلي ما شاء الله أن يصلي، ثم يستغرق في تلاوة كتاب الله عز وجل، والأذكار والوظائف التي اعتادها. وقد سمع أهالي المساجد التي كان الشيخ يدرس فيها ارتفاع صوت بكاء الشيخ وأنينه في الليالي المظلمة، أثناء تلاوته للقرآن الكريم، ولهم في ذلك حكايات وأخبار مليئة بالعظات والعبر[1].

وشهد بعض أقاربه بعضَ كراماته، منها: أنهم وجدوا أناسا مجتمعين بجوار منزل الشيخ في وقت تهجده

([1]) انظر مثلا قدوة حسنة: ص/ 138.

وابتهاله، وهم يؤَمِّنون على دعائه، والشيخ في غرفته والناس خارج البيت، ولا يعرفون من هم ! [1].

وهذا النسك وهذه العبادة لم يكن مما اعتاده بعد بلوغ سن الشيخوخة، بل كان رحمه الله يواظب عليه منذ نعومة أظفاره، سواء كان في بيته مع أهله وعياله، أو في مسجده مع طلبته ومريديه، ومع ذلك لم يحكِ عنه أحد من تلامذته أنه نام في لحظة ما في أوقات النهار في حياته طوال خمسة عقود استمرت في التدريس[2].

ومن القصة التي ذكرها رحمه الله لأحد أبنائه: أنه تأخر في استيقاظ في ليلية من الليالي، ولم يتسطع القيام من النوم في الساعة التي اعتاد قيامه فيها، فجاءه شخص غريب، يحرك جسدَه ويوقظه، ويقول له: استيقظ وقد حان وقت القيام من النوم، فاستيقظ رحمه الله من الرقاد، ثم

([1]) انظر مثلا قدوة حسنة: ص/ 140.

([2]) انظر مثلا قدوة حسنة: ص/ 141.

لما خرج إلى خارج غرفة النوم بحثا عن الشخص الذي أيقظه وجد شخصا على رأسه عمامة بيضاء يُوَلِّي من أمام البيت مسرعا، ولم يعرف من هو[1].

وأما زهده وقناعته فحدِّث عن زاهد وصوفي عاش في قرون الإسلام الأولى، ولا تكون مبالغا أبدا. ويحكى عنه في هذا الباب عجائب لا تحكى مثلها إلا عمن اصطفاه الله اصطفاء خاصا، وأكتفي هنا بذكر واقعة تقاس عليها البقية: أنه جاء إليه أصحاب بلدة غنية من بلاد «مليبار»، يطلبون منه أن يقبل مهمة التدريس في جامعهم، ووعدوا له بألف روبية هندية شهريا، وعرضوا عليه سائر الإمكانيات المطلوبة له ولطلبته، وكان الشيخ في تلك الفترة مدرسا في بلدة «شاليم» براتب ثلاثمائة روبية ! وهذا المبلغ غير كاف لحياة متوسطة في ذلك الوقت لشخص محترم مثل الشيخ. إلا أن الشيخ رفض هذا

([1]) انظر قدوة حسنة: ص/ 140.

الطلب، ولم يلتفت إليهم، ولم يبالِ بعُروضهم السخية، وقد رجعوا خائبين، بعد أن جاؤوه ظانين أن حطام الدنيا الدنية سوف تغريه لقبول طلبهم، سيما وهو محتاج إلى مال، ولكن الذي حصل هو غير هذا تماما؛ حيث لم يعرفوا أنهم كانوا أمام صخرة العلم التي لا تزيدها الأحداث إلا صلابة، وقِمةِ الهِمَّة التي لا تُقيم للدنيا وزنا ولا تساوي عنده قُلامة ظُفر أو جناح بعوضة.

ثم لما عَرف ابنُه هذا الخبرَ سأل والدَه شاكيا: لم لم تقبل هذه الوظيفة يا أبي، ونحن بحاجة إلى المال ؟ فقال له الشيخ الوالد: أنا بفضل الله مقتنع بالراتب الحاصل لي شهريا، ولا أحتاج إلى المزيد، وإذا حصلتْ الزيادةُ في الراتب حصلتْ الزيادةُ في الإنفاق والاستهلاك، فيطول وقت الحساب في المحشر؛ لأن الحلال فيه حساب، كما أن الحرام فيه عقاب، فلا أريد أن يطول حسابي[1].

([1]) انظر مثلا قدوة حسنة: ص/ 120.

ورفض أيضا طلب التدريس في الجامعات والكليات الشهيرة في «مليبار»، مثل الجامعة النورية بـ«فَتِّكَّاد»، وقد دعاه للتدريس فيها زميله العلامة الشيخ أبو بكر الكوتملاوي رحمه الله مع إلحاح شديد، ولكنه لم يقبل، مع أنه كان أحد أعضاء لجنة وضع المقررات الدراسية لهذه الجامعة العربية، وكذا رفض الطلب للتدريس في كلية دار السلام بـ«نَنْدِي»، وقد ألح عليه تلميذه الشيخ محمد مسليار باني هذه الكلية، كما ألح عليه في الطلب شيخه الشيخ شمس العلماء أبو بكر الكاليكوتي، ولكنه أبى ولم يقبل.

والسبب في ذلك أنه لم يكن يحب الشهرة والمناصب، كما لم يحب الالتزام بالأنظمة الحديثة التي تجري عليها الجامعات والكليات الحديثة غالبا، بل كان يحب إلقاء الدروس بلا قيود ولا شروط، يدرس ما يشاء

وكيف يشاء ولمن يشاء وفي وقت يشاء، وكان لا يشاء إلا ما يُرضي ربَّ العالمين[1].

وكان آية في التواضع لأهل العلم، وغايةً في خَفْضِ جناحِ الذلّ لمن حوله، يحكي عنه الشيخ أحيمد الكوتُّورِي – وهو من كبار تلاميذه الباقين على قيد الحياة الآن، حفظه الله وبارك في عمره – أنه حين كان طالبا عند الشيخ زين الدين في جامع «تَلَكَّدَتُّورْ» ذهب في يوم من أيام سنة 1958م ليزور الفقيهَ الإمام مهران بن عبد الرحمن الكيفتوي – صاحب «رسالة التنبيه» التي نال الفقيرَ شرفُ تحقيقها، وطبعت في دار الضياء في الكويت عام 1435هـ/2014م – ولما رجع من زيارته أخبر بها شيخَه الشيخَ زين الدين، فقال له بعد الاستفسار عن حالة الشيخ مهران وصحته: هل تستطيع أن تقيم عنده طالبا ؟

(1) انظر مثلا قدوة حسنة: ص/ 152.

وهذا يدل على منتهى تواضعه رحمه الله؛ حيث ظن أن هذا الطالب الذي قام بزيارة فقيه كبير محقق جليل كالشيخ مهران قد يرغب – بل يرغب تحقيقا في اعتقاد الشيخ زين الدين - في التلمذة عليه والجلوس في حلقات دروسه، فلا يحق لي أن أمنعه من تحقيق رغبته، وأُعَرْقِل مسيرتَه العلمية، فمن هنا سأله هذا السؤالَ، كنايةً عن الإذن في مغادرة حلقته إلى حلقة الشيخ مهران ! إلا أن هذا التلميذ المؤدب هو الآخر أيضا لم يفارق شيخَه الوقورَ، رغم إعجابه بالشيخ مهران وحلقة درسه.

وهذا الخلق النبيل لا يتخلق به إلا من عصمَ اللهُ سِرَّه من الكبر والعجب، وزان باطنَه بالتواضع والأدب، وقد أوتي صاحب ترجمتنا النصيبَ الأوفر منه، فاكتظت مجالس علمه بأعداد وفيرة من المتعلمين، ولم ينفضوا من حوله مغضبين، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران/ 159]، وأنى نجد له نظيرا في زماننا هذا، وإلى الله المشتكى من قوم يَتَّجِرُون في العلم، ويَتَّخِذونه مَطِيَّة للمناصب البالية والمكاسب الفانية.

وكان رحمه الله ممن رُزِق المنهجَ الوسط في الأمور، والاعتدالَ في المواقف، لم يصدر منه أمر ولا نهي في طوال حياته التربوية، ومع ذلك قام بتربية طلابه بإشارات لطيفة ربانية، وتنبيهات خفية نورانية. وسيفُ حلمِه هو الذي كان يشق أرواحهم، وماء علمه هو الذي كان يُطَهر أجسادهم، ولا تزال ألسنة محبيه وطلابه تتردد بحكايات في هذا الباب يطول سردها.

يحكي لنا الشيخ بافو مسليار الترورنغادي (ت: 1435هـ) من أحب تلامذته الكبار، رحمه الله: أنه مرة حضر في مؤتمر سياسي بمدينة «كاليكوت»، عقده حزب المؤتمر الهندي Indian National Congress، وكان

معالي رئيس الوزراء الهندي جوهر لال نهرو ضيفا في المؤتمر، فاجتمع له حشد كبير، فمن هنا اشتاق الشيخ بافو مسليار لحضوره، ولم يستأذن له من شيخه الشيخ زين الدين، فلما عرف الشيخ رحمه الله هذا الخبر لم يضربه ولم يظهر الغضب، ولكن لما حضر في حلقة الدرس في اليوم التالي لم ينظر قط إلى وجه الشيخ بافو مسليار طوال الدرس في هذا اليوم، فارتعدت له الفراعص واستوحش، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهذا التعامل من الشيخ كان كافيا لزجره عن مثل هذه العادات التي لا يرتضيها الشيخ لطلبته.

وفي هذا تصوير لمنهجه رحمه الله في تربية طلبته، وبيان لموقفه من دخول طلبة العلم الشرعي – وكذا غير الشرعي - في الأمور السياسية، ونحن نعيش في زمان ابتلي بنوه بهذه المصيبة بين طلابهم ابتلاء شديدا، حتى

عم الخراب والدمار في المدارس والجامعات، وانتشرت الفوضى والفتن في الشوارع والطرقات.

ومما يضاف إلى هذا المبحث أنه رحمه الله لم يكن يحب التصدي للفتوى في المسائل الفقهية والقضايا النازلة، وإنما كان يُحْجِم عن الوقوع في هذه المسؤولية الخطيرة، فإذا سُئل عن حكم الله في واقعة أحال على كبار علماء زمانه، أمثال الشيخ أحمد الكنيتي والشيخ صدقة الله الوندوري وغيرهم؛ تورعا منه عن هذا المنصب الخطير، وتجنبا لما قد يترتب على ذلك من الفتن والفساد والفوضى بين الناس العوام. وكثير من مواقفه الفقهية والفكرية لم يكن يصرح بها تصريحا، بل كانت له فيها جميعا إشارات وتلميحات عرفها من عرفها من أخص أصحابه وأحب تلاميذه، فنزلوا على رغبته وفازوا برضاه.

وهكذا كان وقوفه مع جمعية علماء أهل السنة والجماعة التي تولى زِعامتها وقيادتها العلامة السيد

الشريف تاج العلماء عبد الرحمن الرحمن البخاري الباقوي الأُلَّالَمِي، ومولانا الشيخ نور العلماء عبد القادر القادري - رحمهما الله - وشيخنا الفاضل قمر العلماء أبو بكر أحمد المليباري – وهو من كبار تلامذته، حفظه الله – ولم يبالِ، وأشاد بأعمالها وقراراتها، وبارك نشاطاتها وقدَّرَ جهودَها، واعتقد في أهميتها في مقاومة أهل البدعة والفساد، إلا أنه لم يكن عضوا فيها، وقد جلَّتْ منزلته عن أن يكون عضوا في جمعية يقودها تلاميذه، وهذا يذَكِّرُني بشيخ الشيوخ شمس العلماء الكرام محمد القطبي رحمه الله؛ حيث لم يكن عضوا في الجمعية، وكانت معمورة بأصحابه الكبار وتلاميذه الأجلاء، ولكنه مع ذلك كان يؤيدها ويدعو لها، بل كان هو الذي يرأس كثيرا من جلساتها أيام حياته.

ولا ننسى أن الشيخ زين الدين رحمه الله كان قد اختير عضوا في جمعيةٍ للعلماء شكَّلَها العلامة الشيخ

حسن بن محيي الدين الفافنشيري رحمه الله في عام 1385هـ، إلا أنها قوبلت برد عنيف من قبل علماء جمعية العلماء الكيرالية، حتى اختفتْ من أرض الوجود كليا في النهاية، والحق أن الشيخ رحمه الله لم يشارك فيها لرغبة له في ذلك، بل اضطر للدخول فيها لسبب علاقته الودية القوية مع الشيخ حسن المذكور الذي شكَّل الجمعية الثانية، بينما الذي كان يتولى رئاسة جمعية العلماء الكيرالية هو شيخه العلامة المفتي صدقة الله الوندوري رحمه الله، فصار بين أمرين أحلاهما مُرٌّ، وكان مُتوتِّرا لهذا السب جدا، وحصل له ما حصل من أمور كدَّرَتْ صفوَ حياتِه، ولا أرى إطالة الحديث في ذلك، وهي من الصفحات التي ينبغي أن تُطْوَى ولا تُحْكَى[1].

([1]) انظر لبعض تفاصيل ذلك في ترجمة العلامة الشيخ حسن الفافنشيري رحمه الله في كتابنا «تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية؛ الإصدار الثانية».

المبحث الرابع: خدماته العلمية وأبرز الآخذين عنه:

بعد التخرج في «كلية الباقيات الصالحات» بـ«ويلور» لم يلبث الشيخ زين الدين أن يبدأ في إشاعة ما زَوَّد به نفسه، من علوم النقل والعقل وفنون الأدب واللغة، فافتتح دروسه في العام نفسه الذي فيه تخرج من الباقيات الصالحات. واستمر في هذه الوظيفة المباركة طيلة حياته، دون ما توقف أو راحة، إلى أن وافاه الأجل المقدور، وحل به صارم القضاء المحتوم، فتشرفت بحلقات دروسه عدد من مدن «مليبار» وقراها، وفتحت لها مساجد «مليبار» زواياها وثناياها، وهكذا صار مدرسا في مساجد كل من «شالِيَمْ»، و«كِيَكِّيفُرَمْ»، و«تَلَكَّدَتُّورْ»، حتى اختار كليةَ «إحياء السنة» التي أسسها هو بنفسه مركز خدمته في أخريات الحياة.

وإن أطول مدة قضاها الشيخ في التدريس هو فترة تدريسه في جامع «شاليم»؛ حيث استمر هناك ربعَ قرن من

الزمن، منذ عام 1953م إلى عام 1979م، باستثناء العامين (1959-1960م) إذ انتقل فيهما إلى جامع «تلَكَّدَتُّورْ» ليلقي دروسه فيه[1].

من ذا الذي يحصي الأنفاسَ ويضبط آحاد الناس، ومن ذا يعد الرمال ويحسب عدد أوراق الأشجار وأنواع الثمار، أم من ذا الذي يكيل المياه في البحار والمجاري والأنهار ! وليس من شك أن تعداد الواردين في هذا المنهل العذب الرَّوِي عمل شاق، وأن الإحاطة بالطائفين حول هذه الكعبة العلمية جهد لا يطاق، وذِكر العاكفين في هذا البيت المعمور صعبٌ على الإطلاق، ومع ذلك يرجع الباجث خاسئا وينقلب وهو حسير؛ لعجزه عن الوفاء بالموعود وتحقيق المأمول والمرغوب، إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وأن الميسور لا يسقط بالمعسور.

---

(1) انظر قدوة حسنة: ص/ 119.

وهنا نذكر عددا من تلاميذ الشيخ زين الدين الأودكلي فيما يلي:

(1) العلامة الشيخ الشهير بـ«كي. سي. جمال الدين مسليار»، رحمه الله.

(2) العلامة الفقيه الفاضل الشيخ بافو مسليار الترورنغادي، المتوفى قبيل فجر يوم الخميس، الرابع والعشرين من شهر شوال عام 1435هـ = 2014/08/21م، رحمه الله.

(3) العلامة المحقق الشيخ أحيمد الكوتوري، المدرس حاليا في مركز سي. يم. ببلدة «تَنَّلَا»، حفظه الله.

(4) العلامة الشيخ سليمان بن أحمد، رئيس جمعية العلماء حاليا، ورئيس جامعة إحياء السنة التي بناها صاحب الترجمة، حفظه الله.

(5) العلامة الشهير الداعية الكبير الشيخ أبو بكر أحمد المليباري، قائد الحركة وزعيم الجماعة، **حفظه الله**.

(6) العلامة الشيخ عبد الرحمن الفاروقي المليباري، عميد كلية الشريعة بـ«جامعة السعدية العربية» بـ«كاسركود»/كيرالا/الهند، **حفظه الله**.

(7) العلامة الشيخ المرحوم زين الدين الشَّرْشِيرِي الْكُنْدُوتِي، المتوفى عام 1437هـ، وكان أمين عامٍ شعبةٍ لجمعية العلماء الكيرالية بعد الانشقاق المؤسف.

(8) الأستاذ الدكتور/ يوسف الأزهري المليباري، أستاذ كلية الدراسات الإسلامية بـ«دبي»[1].

([1]) وله شهرة في العالم العربي والجامعات العربية، وكان أستاذا في جامعة «داكا» في بنغلاديش، وكتب أبحاثا في موضوعات فقهية مختلفة، وقد زرته في منزله

المبحث الخامس: وفاته:

ولم يزل رحمه الله على قدم الزهد والصلاح، قائما بحق الخالق في المساء والصباح، حتى رمِي بسهم الحِمام، وبكى عليه يومَ مات حتى جفون الغمام، توفي رحمه الله في مساء يوم الخميس، 6 جمادى الآخرة عام 1423هـ، الموافق لـ 15 شهر أغسطس عام 2002م[1].

وقد اجتمعت لهذه الفاجعة العمائم ذات العزائم، وهَبَّتْ رياحُ الأرواح والأجساد صوب تلك المدينة الصغيرة هبوبَ النسائم، فغُسل ولم يغسل في الحقيقة إلا علوم الدين، وحملت على الأكتاف ولم تُحمل في الحقيقة إلا صفحة من أجمل صفحات العمل والجهاد،

في «دبي» في عام 2011م، حين كنت زائرا في دولة الإمارات العربية المتحدة، واستضافني وأكرم وفادتي، وهو عالم محترم على خلق جم وأدب عال، ولكن له سامحه الله موقفه الخاص في قضايا دينية وعلمية لا يرتضيه الفقير ولا يوافقه عليه.

([1]) انظر قدوة حسنة: ص/ 20.

وكُبِّرَ على الأدب النبوي والأثر السلفي والفقه الشافعي أربعًا، صلوا عليه بضع مرات؛ حيث زحام المصلين وضيق الميدان، وتدفَّنتْ تحت الثرى ذكريات خالدة واقتبرتْ؛ ليدل من جديد على أن الساعة قد اقتربتْ[1].

وبفناء المسجد الذي بناه الشيخ رحمه الله بجوار منزله بـ«أُدُكُّنْغَّلْ» يرقد جسده الطاهر مع زوجته الفاضلة، يقصده الناس بالزيارة، ويشدون إليه الرحال من أنحاء البلاد، فرحمة الله على هذا الجسد الطيب وهذه الروح الطاهرة.

كثير من الناس يمر بهذه الحياة مرورا عابرا، لا يترك له أثر، ولا يعرف له خبر، يلفه النسيان بدثاره، بمجرد رحيله لدار قراره، وصفحات التاريخ ذات أرضية صلبة، ليس بمقدور كل أحد أن يحفر فيها اسمه، أو ينقش فيها

(1) كاتب هذه السطور ممن شهدوا جنازته وصلوا عليه.

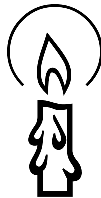
رسمه، إلا من أعطاه الله أظفار علم حديدية، وأنياب حكمة لدنية.

وشيخ مشايخنا العلامة الأستاذ زين الدين رحمه الله من تلك الفئة القليلة التي رسمت معالم المجد والشرف في كتاب الحياة، ونَقَشَت آثار العز والفخار في جبين التاريخ، ولم يكن نجما ظهر واختار أفولا، بل هو شمس سماء المعالي التي لا تعرف إلى الغروب سبيلا، يبقى ذكره ما بقيت أندية العلوم وأروقة الدروس، وينتفع بأثره الأجيال دهورا مديدة وأزمانا طويلة.

وبالجملة فإن هذه السطور لم تكن إلا مجرد محاولة متواضعة لتغطية مساحة ضئيلة من أحداث عالمٍ جسام، وتسليط قدر بسيط من الضوء على تاريخ عارف صوفي، عالم عامل بعلمه، لم يشكَّ في نيله الولايةَ الخاصةَ عينٌ رأتْه ولا أذنٌ سمعته ونفس عاشرتْه. نعم، إنها سطور لم يقصد بها في الحقيقة إلا التمسح بآثاره الجميلة، والتبرك

بذكر مآثره الجمة، والتشبث بذيل فضله العميم، والاهتداء بنور منهجه القويم. ولستُ أبريء كتابي من كل نقص يطرح، ولا أبيعه بشرط السلامة من كل عيب يكره.

لو أن لي به عند الله الرضى لَسَعِدْتُّ بالمنى، أو الهدى لسَلِمتُ من الرَّدى، وهو الذي حثني على العمل وألهمني الصواب، وأكرمني بالتوفيق وطمَّعَنِي في الثواب، وهو أغنى الأغنياء عن الإذلال وإنزال العذاب.



الْمُحْتَوَيَاتُ

أستاذ الأساتيذ 3

المبحث الأول: اسمه ونسبه وشهرته............................ 4

المبحث الثاني: مولده ونشأته ورحلاته العلمية وأهم شيوخه 12

المبحث الثالث: مفتاح شخصيته .... .24

المبحث الرابع: خدماته العلمية وأبرز الآخذين عنه 36

المبحث الخامس: وفاته 40